العرب
الأحد 2021/02/07
السنة 43 العدد 11964

# التفاوض مع الذكورة حل ممكن أمام المرأة العربية

## «روثمان أزرق» لآمال الديب
## رواية تدين الممارسات القمعية ضد جسد المرأة

شاع مصطلح التفاوض لدى منظري الدراسات في ما بعد الكولونيالية، وعلى رأسهم: هومي بابا وجياتري سبيفاك، للتعبير عن محاولات المرء لتعديل شيء فُرض عليه لأنه مرغم على البقاء معه ولا يستطيع قطعه تماما، حيث يتيح التفاوض، بهذا المعنى، أشكالا من الاعتراف المتبادل بين الذات المهيمنة والذات المهيمن عليها، وتسمح بالالتقاء بينهما رغم الاختلافات التي تبدو غير قابلة للحل.

نهلة راحيل
كاتبة مصرية

استخدمت الباحثة النسوية البريطانية دينيز كانديوتي، المتخصصة في مجالات العلاقات بين الجنسين في الشرق الأوسط، نموذج أفكار هومي بابا وجياتري سبيفاك للتفاوض مع الهيمنة الذكورية التي تواجهها النساء بالأخص في مجتمعات العالم العربي والإسلامي، حيث تستخدم المرأة "التفاوض" كوسيلة لمقاومة المركزية الذكورية، وطرح بدائل تمكنها من تحقيق ذاتها في مجالات أخرى لكونها مرغمة على الخضوع لذلك النظام الأبوي في بعض المجالات.

بروز النساء في بعض مجالات العمل العام وفق طرح كانديوتي قد يرافقه بقاؤهن مقيدات بالتقاليد الخاصة التي يفرضها عليهن المجتمع الأبوي/ الذكوري خاصة داخل حدود الأسرة، وتختلف تلك القيود باختلاف ثقافة المجتمع وما يتيحه من سياقات تحرّر للمرأة، ولذلك فالمتفاوضات مع أشكال السلطة الذكورية يحاولن الحصول على حقوقهن التي تظهر بوصفها حقوقا قابلة للتفاوض.

من هذا المنظور، ترتبط حقوق النساء في بعض المجتمعات بقدرتهن على مقاومة التبعية الذكورية واقتسام السلطة معها، بعد أن تبلور وعيهن بضرورة خلق مساحات مشتركة بين الرجل والمرأة، في الوقت الحالي، لصعوبة التخلّص التام من اشتراطات الثقافة الذكورية والوصول إلى الإصلاح المرغوب. ولكن هذا التفاوض جعل النساء يخضعن في بعض الأحيان - كما تؤكد سيلفيا والبي - ليس فقط للأبوية الخاصة (داخل الأسرة) إنما أيضا للأبوية العامة (بساحة العمل).

إلا أن هذه الاستراتيجية قد أجبرت بعض النساء على الامتثال للطاعة الذكورية وقبولها - ولو بشكل مؤقت - مقابل الحصول على المزيد من الخيارات التي تحقق لهن طموحهن الخاص بعيدا عن الإطار الأسري اليومي الذي يحكم الذكر (الزوج - الأب - الأخ) السيطرة عليه، ورغم أن هذا التفاوض قد يمثل لدى النساء خطوة مرحلية مؤقتة يمكن التكيف معها في سبيل الوصول إلى التغيير الجذري المأمول، فإن التحذيرات من مخاطر هذه الاستراتيجية تكمن في أنها تجسّد مسار القوة المؤقتة التي توحي بضعف المرأة أو عجزها عن أن تكون ندًا للرجل أثناء المطالبة بحقوقها.

ولذلك فإن التفاوض مع الذكورة "قد يظهر كمرحلة طبيعية أو كمرحلة أزمة" وفق التأثيرات اللاحقة للمرحلة، التي قد ينتج عنها استسلام النساء لهذا الواقع وتوريث هذا التقليد من الامتثال إلى الأجيال اللاحقة من الفتيات في ظل مبررات مجتمعية - يرعاها الذكر أساسا والأنثى أحيانا - تضمن التبعية النسوية وتشرّع الحماية الذكورية، أو قد ينتج عنها في النهاية التوزيع العادل للأدوار بين الرجل والمرأة في المجتمع وتحسين خيارات المعيشة التي تصنع النسيج الاجتماعي لحياتهما معا.

### في ظل قوانين الذكورة

تطرح رواية "روثمان أزرق" للكاتبة المصرية آمال الديب، الصادرة في طبعة ثانية عن دار دريم، عام 2020، خطابا نسويا يبتعد عن الافتراضات النسوية النابعة من المركزية الغربية، ويقترب أكثر من وضعية النساء في المجتمعات العربية التي تحاول فيها المرأة التكيف مع ظروف مفروضة، إلى جوار النضال من أجل الإبقاء على هويتها الأنثوية كوسيلة لتعيين الذات. وهنا تجسد الرواية الكيفية التي تحاول بها المرأة التفاوض من أجل اكتساب المزيد من تقدير الذات وتحسين الأوضاع المعيشية ضمن إطار هويتها الجندرية وسياق علاقاتها المجتمعية.

تسرد الرواية حكاية امرأة عاملة، أرملة وأم لطفلة، تمرّ بتجربة حبّ تجمعها برجل متزوج ينجم عنها حمل، ثم إكراه على إجهاض الجنين بعد مطالب متكررة من المحبّ، لتعقبها فترة حاسمة من التحولات التي تنتاب علاقتهما، واستمرار تفاوض المرأة - رغم ذلك - مع الوضع المأزوم واختلاقها مبررات تتحدّى الظرف وتسمح بالالتقاء بالرجل مرة أخرى رغم خذلانه لها ومواقفه السلبية معها.

يلتقي القارئ بأول أشكال هذا التفاوض بداية من العنوان الذي قام بدور المحفز الرئيس لاستنطاق النص، فـ"الروثمان الأزرق" هو نوع من ماركات السجائر التي اعتادت الحبيبة توفيرها لصديقها حتى لا يشعر للحظة معها بأن شيئا ينقصه، فالرعاية الأمومية التي تعطيها له طوال الوقت بدت لها الضامن الأوحد لسطوتها ولبقائه في آن، وهو ما يحيل إلى الخطاب الذكوري الشائع حول ارتهان ما يقدمه الرجل للمرأة بمقدار ما تمنحه له من تدليل وما تبذله لأجله من تضحيات.

وبمرور السرد، تكسر الكاتبة آلية الانحياز للصوت النسوي المتبعة في أغلب سرديات المرأة التي تفرد المساحة النصية للبطلة كي تمتلك وحدها سلطة التمثيل والصوت والمنظور، فتفسح المجال للصوت الذكوري الذي يسرد عوالمه الداخلية والخارجية ويكشف عن وقوعه - هو أيضا - ضحية لبعض الأعراف المجتمعية رغم تورطه في الأزمة. وهنا، يمكن القول إن استحضار صوت الرجل جاء لإثبات صوت المرأة، ولم يلغ أيّ منهما الآخر، فتوزعت مركزية السرد بينهما تماشيا مع النسق الذي أرادت الكاتبة تمريره؛ وهو احتياج كل طرف منهما إلى الآخر حتى في ظل الشروط الاجتماعية غير المنصفة بين الرجل والمرأة.

صوت المرأة في الرواية يسمح لنا بالاطلاع على أزمة واقعها بعد أن أيقنت أن الرجل/ المجتمع لم ينصفها، وكشف لنا ما تعانيه من تبعات نفسية واجتماعية، فكما جاء في الرواية على لسان البطلة "البنت التي كنتها منذ زمن بعيد تغيرت ملامح روحها.. صارت أكثر نضجا.. ربما، أو أكثر واقعية، أو حتى أكثر تجلدا.. وربما شاخت وتكابر ما زالت! لا شيء يبقى على حاله، ولا حتى أرواحنا، بل لاسيما أرواحنا! تراودني الرغبة في أن أهرب لبعض الوقت ممّا أنا فيه فأحبك في خيالي، لكنني لا ألبث أن أفيق على وجع بروحي يتصاعد كنفثات دخانك الشره، حين تشعل السيجارة من الأخرى!".

وجاء صوت الرجل - من موقعه السردي - ليستنطق الثقافة الأبوية ويعري تحيزاتها الأيديولوجية، فيؤكد خطاب الذكورة تناقضاته الشعورية/ الفكرية تجاه المرأة، التي "ربما هي لا تعرف أنني أعاقب نفسي قبل أن أعاقبها على هذا الخطأ الشنيع الذي تورطت فيه، لو كانت ظروفي مستقرة وأستطيع أن أكون إنسانا طبيعيا لتزوجتها، لم أكن أبحث عن سعادة أكثر من تلك التي عشتها بين يديها... أعترف أنني لا أطيق أن أضع أصابعي على بطنها التي كانت تحمل ابني وأنني من أجبرتها على التخلي عنه... كيف أتلذذ بالنظر إلى عينيها وأنا أضاجعها إن كنت أعرف تمام المعرفة أن ابني ذا الذي اشتركنا في قتله يختبئ هناك بين هذه الجفون؟".

تتساوى لدى الكاتبة الثقافة الذكورية المتسلطة مع السلطة الحاكمة في مظاهر الاستبداد، فالتجربة الإنسانية في مجملها خاضعة - بشكل ما - لهيمنة أعلى تمارس قهرها على الأفراد - رجالا ونساء - الذين يحاولون التحرر والمقاومة كلٌ بطريقته.

فمثلما اتضحت أدوات الإكراه والتسلط في تجربة الإجهاض، نراها جلية كذلك في إحكام السلطة على المعارضين وفرض الوصاية على آرائهم، فأحد شباب العائلة يتم اعتقاله لاعتراضه على التفويض رغم عدم خروجه عن مبادئ التظاهر السلمي، لتتساءل عن مصيره غير المقيد بالتجربة الفردية بل يتعداها ليصل إلى المجموع "هل هو عام من عمر ذلك الشاب ضاع وراء تلك القضبان، وذنبه أنه قرر أن يعترض على التفويض بالقتل، حتى لو كان مخطئا فليس هذا هو عقابه المناسب.. ليس لهم أن يحرموه من أبسط حقوقه في الاعتراض بسلام".

### نساء ضد النسوية

يشكك الخطاب النسوي ضمن الرواية في مدى مشروعية مقاييس النسوية الغربية ومواءمتها للسياقات الثقافية والاجتماعية لقضايا المرأة المنتمية إلى ثقافات العالم العربي، فالنسق المضمر في خطابها يعترف بالنضال من أجل حقوق المرأة ودعم إنسانيتها دون تحيز أو قيد، ولكنه لا يؤيد النسوية الغربية المعاصرة التي لا تعكس تجارب النساء جميعا، وربما تؤدي إلى الانقسام بين الرجل والمرأة، فهي ترى أنه على النساء والرجال توحيد قواهم لتحقيق المساواة الحقيقية.

ولذلك تفصل الكاتبة بين استقلالية المرأة وحاجتها - أحيانا - إلى الحماية، وتعلن قبولها لأن يتحمل الرجل (ابنا أو زوجا) مسؤوليتها المعيشية في ظل صعوبة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، فهي تفاوض في جزء من شروطها النسوية التي قد لا تخلّ بمقاومتها للهيمنة الذكورية، مقابل التخفف من بعض ضغوط الحياة والحصول على الأمان الاجتماعي ولو كان برعاية ذكورية.

من هنا تبرر الساردة لنفسها حاجتها إلى مولود ذكر يرعاها وابنتها في المستقبل، ويكفل لهما - بشكل ما - الأمان المادي والاجتماعي. ولا يمكن أن ننظر إلى ذلك المنحى بوصفه نوعا من "النسوية الذكورية"، وهي التهمة الجاهزة الموجّهة إلى الخطاب النسوي المغاير للخطاب النسوي الرائج، بل هو في الأساس موقف إنساني يبرز ما تعانيه المرأة بسبب هويتها التقاطعية كأنثى، وكعاملة متوسطة الحال، وكأم أرملة تُعيل أسرتها، في مجتمعات لا تكفل في الغالب الفرص المتكافئة للنساء وللرجال.

> الرواية تجسد الكيفية التي تحاول بها المرأة التفاوض من أجل اكتساب المزيد من تقدير الذات وتحسين الأوضاع المعيشية

فالمعلن من الخطاب السردي هو الرغبة في إنجاب ذكر يكون هو "الحامي" و"المعيل"، والمضمر هو ما يمكن تأويله بعدم منحه صلاحيات أو مزايا تزيد من سلطته الذكورية أو تبرر تراتبيته النوعية "الليالي العشرون التي كانت عمر علاقتي بجنيني بعد أن شعرت بوجوده غيرتني كثيرا، وبخاصة أنني كنت أوقن أنه ولد، لم يكن مجرد إحساس، بل كان ذلك يقينا يتلبسني... كنت شغوفة بذلك الإحساس الرجعي تماما وسعيدة به، أن يكون لي ولد يحميني وابنتي حين أبلغ مرحلة الضعف المحتومة، يحمل عني بعض ما يثقلني، بل ويذكرني دوما بأبيه".

وفي هذا السياق، تُحمّل الكاتبة النظام المجتمعي بأكمله مسؤولية قهر المرأة، وتشير في نسيج سردها إلى أن تحسين وضعية النساء في المجتمعات العربية يرتبط في الأساس بالإصلاحات التي يجب أن تمس المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وبالتغييرات التي يستوعبها الخطاب الديني في ما يخص المرأة، فالنضال من الأحرى أن يكون موجها ضد الفقر والمرض والجهل والعنصرية، وغيرها من المفاهيم التي تغيّب العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع.

لذلك تكشف الساردة، عبر مونولوج بوحي مكثف، عن إحساسها بالظلم الاجتماعي وصعوبة مواجهة تبعاته منفردة، منتقلة إلى صيغة الجمع - وليس المفرد (الأنا) - من ضمير التكلم، لتنسحب عائدات التجربة الذاتية على جميع النساء اللائي يتعرضن لإخفاقات مجتمعاتهن وأنظمته الثقافية، فتُضمّن - بالتالي - ذاتها داخل الأنا الجمعية النسوية "حياتنا الخاصة مزيج من القهر والعبث، ووطأة الإحساس بالقهر.. أين العدالة في احتمال المرأة وحدها عواقب كل علاقة بالرجل؟ سواء كانت زواجا فاشلا أم علاقة مفتوحة أو حتى علاقة عابرة؟ ثم نتشدق بأن هناك مساواة؟ أين هي؟".

### الكتابة عن الجسد الأنثوي

أتاحت عملية التفاوض للكاتبة تمثيل جسدها خارج نمطية التعبير عن "أزمة الجسد الأنثوي"، ففي هذا المستوى من التمثيل تبدو الكتابة الروائية عن الجسد بعيدة عن تصوير التشْييء الجنسي لجسد المرأة والتركيز على تبعيّته للرجل. لذلك يبدو الجسد الأنثوي في النص متعالقا مع الجسد الذكوري، بما يتواءم مع رؤية الكاتبة القائمة على تكريس "احتياج" كل طرف إلى الآخر دون تمييز أو سيادة.

فكانت الكتابة عن الجسد - من هذا المنظور - أداة تؤكد بها الساردة مشاعر الانفصال/ الاتصال التي تحكم العلاقة الحياتية بين الرجل والمرأة، وتبرز التجاذبات اليومية التي يتأرجح كل منهما بين الانجذاب والنفور في علاقته المركبة مع الآخر "حين ألتقيه سأكون في كامل أناقتي، فلا بدّ من فرصة مغايرة كي أفعل، سأترك الماء الساخن حدّ التبخر يتخلل كل مسامي، ويتراقص مرتعشا كسرب من النمل ينقل مخزونه الشتوي في صفوف متلاحقة على جسدي. كم فتنني الإحساس بأنوثتي بين يديك، حتى صرت أتلذذ برعونتي تحت زخات الماء... سأزيل كل شعرة زائدة بجسدي، وأسكب من كل أنواع العطور التي يكتظ بها درج الكومود على رقبتي وتحت إبطيّ وفوق سرتي حتى ترتوي كل مسامي تماما".

ولذلك فرضت حالة التجاذب السماح للرجل بتمثيل سلطة الجسد الأنثوي عليه، على خلاف النسق النسوي التقليدي الذي يهمين عليه صوت المرأة في سرد حكاية الجسد بهدف كشف سياسات الهيمنة الذكورية، ليعكس الخطاب الروائي وعيا مغايرا بشأن جسد المرأة وتداعياته الوجودية على الطرفين "الغريب أنني لا أجرؤ أن أذهب إليها، وأخشى أن ألتقيها.. لم أضعف أمام أنثى مثلما حدث معها، أكون مقررا في ما بيني وبيني أنني لن أضعف أمامها، وحين أسمع صوتها أو أراها في أحد الأحلام أشعر بالرغبة الجارفة في احتضانها، بل وفي مضاجعتها أيضا".

لم ينشغل الخطاب الروائي بتكريس أزمة الجسد الأنثوي - سواء على المستوى البيولوجي أو على المستوى القيمي - فابتعدت الحكاية عن منطق التقابلات الثنائية النمطية (الرجل/ الجاني - المرأة/ الضحية)، وتمثلت إدانة الممارسات القمعية ضد جسد المرأة - وعلى رأسها الختان - بأسلوب سردي سلس دون الحاجة إلى ترديد صوت مشحون بالغضب، فكان تأثيرها أقوى على المتلقي.

تفاوض موجع من أجل حقوق عادية (لوحة للفنانة زينة مصطفى سليم)

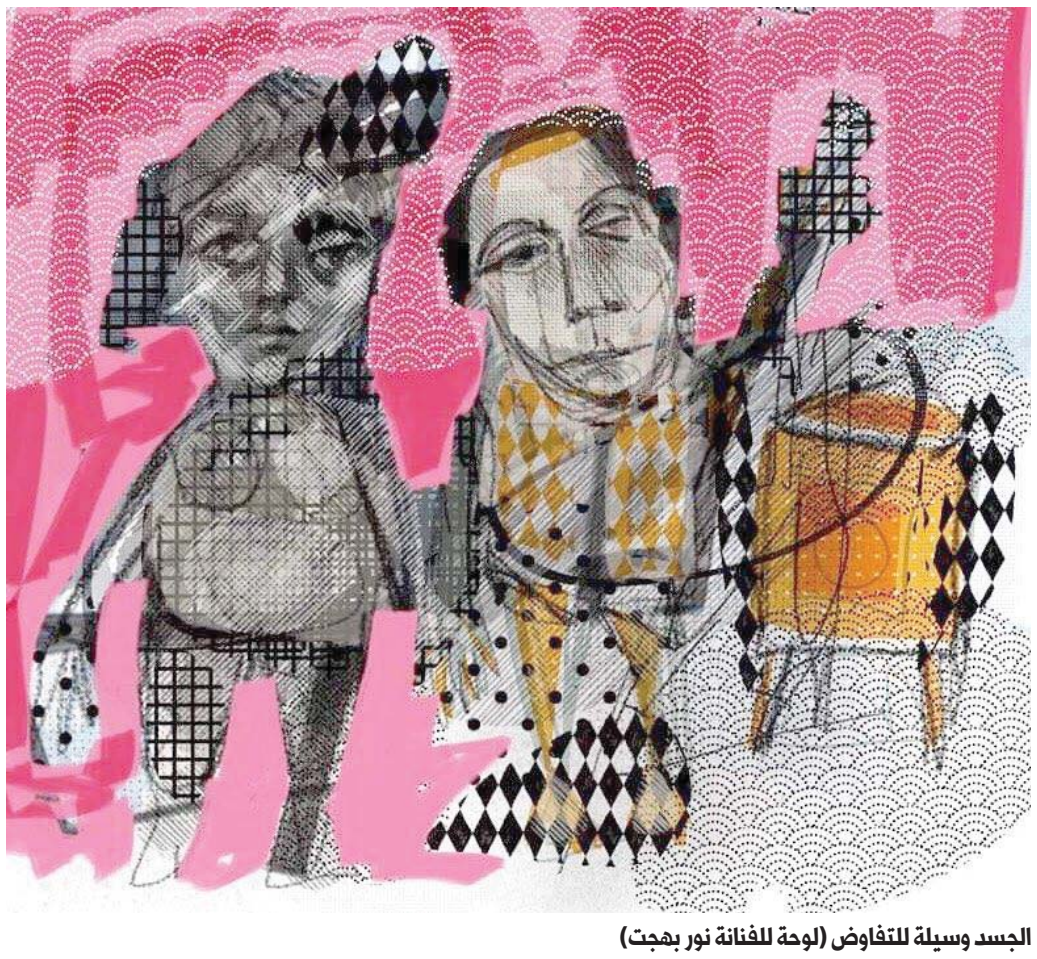

الجسد وسيلة للتفاوض (لوحة للفنانة نور بهجت)